مقارنة بين المقاومتين: الفلسطينية واللبنانية (2 من2)

اخفاق أحزاب الأنظمة العربية القومية انعكس سلبا على انتماء وتبعية فروعها الفلسطينية لها

الاتجاه الديني الفلسطيني انتعش بسبب مسلكيات القيادة الفلسطينية الفئوية وتغليبها المصلحة الذاتية

د. فايز رشيد*

الانتصارات الكبيرة التي أحرزتها المقاومة الوطنية اللبنانية، المتمثلة في (حزب الله) سواء في عام 2000، عندما تمكنت من إجبار العدو الصهيوني على الاندحار من جنوب لبنان ليلاً، أو في تصديها الصلب والموجع للعدوان الإسرائيلي في عام 2006، ولمدة تنوف عن الشهر... تدعو إلى الإعجاب، وهي ستترك آثارها وتداعياتها ليس فقط في مواجهة لبنان مع إسرائيل، وإنما في مجمل الصراع العربي ـ الإسرائيلي، إن في دلالاتها الجديدة بفتح أبواب كانت مغلقة، أو في المتغيرات الإستراتيجية والعوامل المؤثرة في هذا الصراع. لذا يكون من الطبيعي أن نتساءل والحالة هذه: لماذا استطاعت المقاومة اللبنانية تحقيق انتصارين كبيرين في سنوات قليلة، بينما لم تستطع المقاومة الفلسطينية الأطول زمناً كسب أي انتصار ملموس على صعيد قضيتها الوطنية، إن لم نقل أنها تسببت في إخفاقات كبيرة لحقوق شعبها رغم تضحياته الهائلة والكبيرة؟

الايمان النظري الأيديولوجي للحركة المقاومة

رغم تعدد المنطلقات النظرية لحركات المقاومة في التاريخ الحديث، فانها تنحصر في اتجاهات ثلاثة، دينية، وطنية قومية، ويسارية.

لكن أيا كان الانتماء العقائدي للحركة المقاومة، فمن أجل أن يفعل فعله المرجو، يتوجب أن يشكل ايمانا حقيقيا (وليس شكليا) للمنتمين الى هذه الحركة: أعضاء وقيادة، فمن دون ذلك، والى جانب الخلل الذي يحدثه الايمان الشكلي في مجمل المسيرة النضالية، ان من حيث عدم اقتناع العضو ذاته في صحة ما يدعيه من منطلقات نظرية وبالتالي فيما يقول، أو في انعكاس هذا الأمر على توجهه نحو الجماهير، فلا يمكن لغير مقتنع أن يقنع ناسا عاديين بصحة منطلقاته النظرية.

من جانب آخر، فان ميزة كبيرة تجنيها الحركة المقاومة وتنعكس في التفاف الجماهير الشعبية من حولها، واحتضانها والايمان بأهدافها، ان تواءَمَ منطلقها العقائدي مع أهدافها الاستراتيجية، وفي حالة انسجام هذين العاملين المهمين مع ما تؤمن به الجماهير عفويا وبالفطرة من شعارات ومعتقدات مترسخة في أذهان أفرادها.

لا نقول ذلك للمفاضلة بين بُعد ايديولوجي وآخر، وانما من حقيقة موضوعية أفرزتها تجارب الكثير من الحركات المقاومة.

لبنانيا، فان المقاومة تنطلق من بعد ايماني ديني معزز بالانتماء الوطني القومي في النظرة الى الأعداء ووجود دولتهم، وبذلك تحققت أعلى درجات الانسجام بين هذا الايمان والمعتقدات الاستراتيجية.

من المزايا التي تحققت للمقاومة اللبنانية من خلال هذا التبني المعتقدي أن غالبية الجماهير اللبنانية في الجنوب اللبناني تتبنى هذه المعتقدات، وتسكن الأرض التي تعتبر منطلقا جغرافيا للنضال، وبذلك تحققت وحدة الجغرافيا والأيديولوجيا والسياسة (وذلك نادرا ما يتحقق لحركة المقاومة) مما كان لها أثرٌ كبير في مدى الاحتضان الجماهيري لهذه المقاومة، وبذلك تحققت أيضا الوحدة الكاملة بين المقاومة وجماهيرها، (وهذه أيضا وبهذه المستويات من النادر أن تتحقق)، مما صنع في نهاية الأمر تعزيزا وقوة اضافية للمقاومة اللبنانية، التي استغلت هذا الأمر أحسن استغلال.

فلسطينيا، فقد تبلورت المعتقدات النظرية لدى الكثير من الفصائل الفلسطينية بعد مضي فترة عام الى عامين على انطلاقة النضال المسلح مباشرة بعد حرب عام 1967 كرد على الهزيمة، حيث كان الأنشداد بشكل عام منصبا على القيام بعمليات عسكرية ضد العدو الصهيوني، كما وتميزت تلك الفترة بانخراط واسع من قبل الشباب الفلسطيني والكثير من المواطنين العرب في التنظيمات التي زاد عددها عن اثني عشر تنظيما، كما لوحظ في تلك الفترة حرص بعض الأنظمة العربية، وتحديدا ذات الاتجاه الحزبي القومي، على أن تشكل الأفرع الفلسطينية التابعة لأحزابها، تنظيمات مسلحة مقاومة في الساحة الفلسطينية.

المعتقدات النظرية للفصائل الفلسطينية

يمكن حصر المعتقدات النظرية للفصائل الفلسطينية في الاتجاهات التالية:

الاتجاه الوطني العام، وبعض تنظيماته تمثل جبهة عريضة، أكثر منها تنظيما واحدا، فهي تسمح بعضويتها لكافة الاتجاهات بعيدا عن الايمان النظري، الذي يتبلور في خطوط وطنية عامة يتفق عليها الجميع، وهذا الاتجاه أقرب الى الاتجاه القومي.

الاتجاه القومي، وتنظيمات هذا الاتجاه كانت محكومة في خلفياتها النظرية لمنطلقات أحزابها الحاكمة في بعض الدول العربية.

الاتجاه اليساري، والذي تبلور في تنظيمات انتهجت الماركسية ـ اللينينية كخلفية عقائدية نظرية لمسيرتها النضالية.

الاتجاه الديني، وتنظيماته ظهرت متأخرة عن تنظيمات الاتجاهات الأخرى.

هذا التنوع النظري (ان جاز التعبير) خلق خيارات متعددة أمام المواطن الفلسطيني للانضمام الى مسيرة النضال الوطني.

ومثلما كان هذا التنوع أيجابيا، فقد كان له وجهه السلبي أيضا، ان من حيث تقليل الفرص للاتفاق على برنامج سياسي استراتيجي موحد، أو في انتهاج سياسات موحدة حول كافة القضايا المحلية والعربية والدولية، ولعل أهم ما في ذلك هو بالنسبة للنظرة الموحدة للعدو.

الاتجاه الوطني العام كان عرضة للآراء المتعددة في داخل التنظيم الواحد بالنسبة لقضية ما سياسية. كان من الصعب في مثل هذا الاتجاه تغليب مبدأ تنظيمي في غاية الأهمية بالنسبة للثورة في مرحلة التحرر الوطني، ألا وهو (احتكام الأقلية لوجهة نظر الأغلبية) في المسائل والقضايا السياسية.

أما فيما يتعلق بالتنظيمات ذات الاتجاه القومي، فأقل ما يمكن أن يقال فيها: أنها امتداد للتنظيمات الأم الحاكمة في بلدانها، سياسيا وتنظيميا، استراتيجية وأداء! فالسياسة الفلسطينية لهذه التنظيمات كانت دوما عرضة للتدخل من قبل النظام للحزب القومي الحاكم، والذي تقلص في دوره تدريجيا ليصبح فئة حاكمة، وفيما بعد تطور الأمر الى الزعيم الحاكم.

في كثير من المراحل كان لبعض تنظيمات هذا الاتجاه رؤيتها المغايرة لمجموع التنظيمات الفلسطينية الأخرى، ليس بالمعنى السياسي فحسب، وانما بالمعنى الميداني العسكري أيضا، وتحديدا في الانزلاق الى الاقتتال الداخلي الفلسطيني ـ الفلسطيني!

بالتأكيد، فان اخفاق أحزاب الأنظمة العربية ذات التوجه القومي في تشكيل حالة قومية وطنية متميزة على الساحة العربية، لأسباب خاصة ببنية هذه الأحزاب في المجالات المختلفة... سينعكس اخفاقا متزايدا للفروع الفلسطينية لها، مما جعل الانضمام لهذه التنظيمات مرهونا بعضوية الحزب، وبالتالي الانضواء وبشكل غير مباشر ضمن دائرة التبعية للنظام نفسه، مما حدَ بشكل كبير من انتشار هذه التنظيمات عرضيا بين الجماهير الفلسطينية.

بالنسبة للاتجاه اليساري في الساحة الفلسطينية... فباستثناء الحزب الشيوعي (الفلسطيني) فيما بعد المتبني للماركسية ـ اللينينية، والذي لم يكن على جدول أعماله نهج الكفاح المسلح، بل اقتصر نضاله على الساحة السياسية تحت شعار (دولتين لشعبين)، وفيما بعد تعرض لانشقاقات حادة، بعض أطرافها انتهج شعار (الثورة المسلحة)..... فان تنظيمات اليسار الفلسطيني تبلورت رؤاها الأيديولوجية خلال سنوات قليلة ما بعد هزيمة حزيران مباشرة.

اليسار الفلسطيني هو امتداد لارهاصات نظرية كانت تجري في حركة القوميين العرب، وبخاصة في السنوات الأخيرة ما قبل عام 67.

ان تبني أحد تنظيمات المقاومة الفلسطينية للنهج اليساري الماركسي بعد الهزيمة، يُعَد خطوة كبيرة ورائدة وشجاعة في آن معا، ففي الوسطين الفلسطيني والعربي عموماً ارتبط هذا النهج بالكفر والالحاد والابتعاد عن الدين والتراث!

وبغض النظر عن هذه الصورة، استطاع هذا التنظيم الرائد أن يكون أحد أكبر تنظيمين في الساحة الفلسطينية، ومما ساعده في فرض قوته وصورته التنظيمية في أوساط الشعب الفلسطيني أنه: يشكل امتدادا لحزب وطني قومي عربي كبير أثبت كفاءته النضالية وتمكن من تحقيق بعض الانتصارات في أكثر من موقع على الساحة العربية، ان هذا التنظيم زاوج بين النظرية الماركسية والكفاح المسلح اهتداء بالكثير من تجارب حركات التحرر الوطني في آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية، ذلك أنه أول تنظيم فلسطيني ـ عربي يساري يطرح حرب التحرير الشعبية كأسلوب كفاحي لتحرير فلسطين، استطاع هذا التنظيم وبرؤية بعيدة النظر من طرح استراتيجية وطنية ارتباطا مع العمق القومي العربي وبأفق انساني تحالفا مع قوى التحرر في العالم والبلدان الاشتراكية والشعوب المضطهدة (بفتح الطاء) في كل مكان، الممارسات المسلكية لهذا التنظيم تميزت بالنقاء في محاولة للوصول الى الطهارة الثورية النضالية، دقة التحليل النظري التفصيلي لأسباب الهزيمة وعوامل النصر، مما كان له انعكاس تأثيري قوي في الأوساط الجماهيرية الفلسطينية والعربية التي حملت النظام العربي الرسمي مسؤولية الهزيمة.

ذلك لا يعني عدم وجود اشكالات نظرية في هذا التنظيم، والتي تبلورت فيما بعد في انشقاق تنظيمي لفئة شكلت تنظيما يساريا جديدا الى جانب التنظيم الأم.

الاشكاليات النظرية

ومع صعوبة الجمع بين فصائل اليسار الفلسطيني من حيث الاشكالات النظرية التي كانت تعتمل في دواخلها... لكن وبسمة عامة يمكن اجمالها فيما يلي:

ان تبني فصائل اليسار الفلسطيني للأيديولوجيا الماركسية، لم يكن استجابة لتطور موضوعي في الساحة الفلسطينية اقتضى هذا الاعتناق العقائدي.... وانما امتداد لارهاصات سابقة (مثلما قلنا) سارعت في حسمها هزيمة 67 بمعناها النظري التحليلي العريض.... مما يعني أن التبني في بعض عوامله كان يميل الى التبني القسري، الأمر الذي كان يحمل في أحشائه (وبخاصة في السنوات الأولى) انفصاما ما بين الايمان النظري والتطبيق وقد كانت له أسبابه ومنها:

أن الكوادر التي تربت لسنوات طويلة بالثقافة القومية، كان عليها أن تنتقل وبسرعة فائقة الى نمط جديد من الخطاب النظري للتعبئة الذاتية والأخرى التحريضية، ان في أوساط التنظيم نفسه أو في علاقته بالجماهير.... مما خلق اشكاليات حقيقية تمثلت في جانبين: الأول.. قدرة هذه الكوادر على الاستيعاب العميق للنظرية كانت محدودة، الثاني... ولأن الأمر كان كذلك، كان من الصعب على التنظيم بالتالي ايصال أفكاره الى الجماهير، وبخاصة أن الأخيرة كانت عرضة لسنوات طويلة لحمى تحريضية رأسمالية ضد الشيوعية واليسار بشكل عام.

من الاشكاليات النظرية التي واجهتها فصائل اليسار أيضا:

انشداد بعض الفصائل الى وجهات النظر السوفييتية والمتماثلة بالطبع مع دول المنظومة الاشتراكية والكثير من الأحزاب الشيوعية والعمالية العالمية (ومن ضمنها كافة الأحزاب الشيوعية العربية مع استثناءات قليلة) فيما يتعلق بالقضية الفلسطينية والقضايا العربية بشكل عام... بمعنى آخر، فان هذا البعض حاول تطويع القضية الفلسطينية لتكون وفقا لمقاس النظرية الماركسية، وليس العكس، مما أثر بشكل جوهري في ممارسات سياسية وتنظيمية للبعض كانت أقرب الى المراهقة اليسارية منها الى السياسات الفعلية.

لقد فشل اليسار الفلسطيني في ايجاد صيغة موحدة بين أطرافه للعديد من الأسباب، ولعل أبرزها:

افتقاد تنظيماته الى رؤية استراتيجية موحدة للهدف النضالي، سيطرة نزعة المصالح التنظيمية لبعض أطرافه على حساب الوحدة الجمعية لليسار، تغليب الانشداد الى الوحدة الوطنية الفلسطينية في مراحل ومفاصل كثيرة من النضال الفلسطيني، وقد كانت هذه المراحل تقتضي فرزا سياسيا واضحا في المقارنة مع النهج الآخر.

من الجانب الآخر الموضوعي، فانه لم يكن من المسموح عربيا ومن خلال قنوات رسمية كثيرة متعددة: اعلامية، اقتصادية وغيرها لليسار الفلسطيني أن يكون في موقع الطرف المقرِر للساحة الفلسطينية.

دوليا، فان انهيار الاتحاد السوفييتي ودول المنظومة الاشتراكية، كان بمثابة هزة حقيقية لكافة فصائل اليسار على الصعيد العالمي، ومنها منطقتنا العربية وساحتنا الفلسطينية.

هذا الوضع بالتأكيد سيؤثر على علاقة اليسار بجماهيره من حيث انحسارها، وبخاصة اذا ما كانت أطراف أخرى جديدة في توجهاتها تحاول ملأ الفراغ الناتج عن ذلك الانحسار.

الاتجاه الديني

الاتجاه الفصائلي الديني، ظهر متأخرا في الساحة الفلسطينية مقارنة مع التنظيمات الأخرى وهو في جوهره امتداد للتنظيمات العربية للاخوان المسلمين، فبعد هزيمة 67، فان أسئلة كثيرة كانت تطرح في بعض أوساط هذا الاتجاه من حيث عدم جواز مقاتلة اسرائيل عسكريا الا بعد انشاء دولة الخلافة الاسلامية وغيرها من المواضيع، التي أعاقت انخراط هذا التيار في المقاومة وحتى مرحلة متأخرة في النضال.

الاتجاه الديني ينطلق من ايمان عقائدي بالاسلام وتعاليمه فيما يتعلق بالصراع مع الأعداء وبخاصة مع اليهود.... ولذلك فان الخطاب السياسي لأصحاب هذا الاتجاه –حتى فترة زمنية قريبة– كان يقرن بين اليهود والقردة والخنازير، من خلال التصريحات حتى على وسائل الاعلام الأجنبية، بعيدا عن الفهم العلمي بأن يهودا كثيرين كانوا تاريخيا وراهنا ضد الحركة الصهيونية.... كأيديولوجيا تحويلية لليهودية من ديانة الى حركة قومية، استيطانية، استعمارية، عنصرية.

جاء نمو التيار الديني في الساحة الفلسطينية بوسائل متسارعة، ساهم فيها:

أن اعتناقه الأيديولوجي الديني منسجم تماما مع ديانة الغالبية العظمى من جماهير الشعب الفلسطيني، وفي مرحلة يتعرض فيها (الاسلام المقاتل) الى هجمة دولية واسرائيلية كبيرة وشرسة، تحاول الصاق تهمة (الارهاب) بكل الفصائل الفلسطينية والعربية الأخرى المقاومة، مما سيعمل على خلق ردود فعل عكسية في الأوساط الجماهيرية.

من ناحية ثانية، فان اخفاقات الفصائل الأخرى التنظيمية والسياسية والجماهيرية، وبخاصة القوى المتحكمة في منظمة التحرير ومن ثم (فيما بعد) التي شكلت السلطة في الأراضي الفلسطينية، لم تستطع صنع النموذج المقبول جماهيريا، ان بسياساتها ومسلكيتها وتعاملها مع قضايا شعبها.

من أكبر العوامل التي ساعدت أيضا على تغلغل فصائل الاتجاه الديني جماهيريا: عقم التسوية التي حاول المروجون لها ولاتفاقياتها، الايحاء للشعب الفلسطيني بامكانية اقامة دولته الوطنية، وامكانية نيله لحقوقه الوطنية من خلال الحلول السياسية.

فصائل الاتجاه الديني، أولت الجوانب الحياتية الخدماتية والاجتماعية للفلسطينيين أهمية أساسية، في ظل وجود قدرات مالية كبيرة، واعتبرت هذا المدخل الخدماتي مجالا للعمل على توسيع نفوذها وتغلغلها بين أوساط الجماهير.

لقد لوحظ أن التنظيم الأقوى بين الحركات الدينية على الساحة الفلسطينية، وعندما تسلم الحكومة بعد الانتخابات التشريعية فخذ في الميل الى النهج البراغماتي في السياسة، ان من حيث طرحه لهدنه مع اسرائيل لمدة 15 عاما، أو من حيث شبه ايقاف لعملياته العسكرية ضد اسرائيل، باستثناء ما يقوم به من بعض العمليات في المناطق الفلسطينية المحتلة، ومن حيث نمطية الخطاب السياسي أيضا، فالفرق كبير بين وجود الحزب في المعارضة وبين وجوده في احدى مؤسسات السلطة.

الجوانب المسلكية في العلاقة الداخلية ومع الجماهير أيضا

لعل من أهم جوانب كل الحركات المقاومة على مدار التاريخ، هي الجوانب المسلكية لقادتها وأعضائها، ان في العلاقة الداخلية فيما بينهم، أو الأهم وهي العلاقة مع الجماهير.

لطالما قرأنا حوادث كثيرة في تجارب عديدة لحركات التحرر الوطني، أضطر فيها قادة هذه الحركات الى ارساء تقاليد قاسية تتمثل في عقوبات تصل الاعدام بحق الأعضاء الذين يسيؤون الى الجماهير. هذه العقوبات القاسية ليست هدفا بحد ذاتها، بل هي طريقة يتم اللجوء اليها، للتربية والانضباط المسلكي أولا، وثانيا من أجل أن تكون عامل ردع لكل من يفكر في انتهاج النمط المسلكي المسيىء.

لبنانيا، كان ملفتا للنظر الانضباط المسلكي الصارم والحديدي لأعضاء المقاومة اللبنانية لسنوات ما قبل العدوان الاسرائيلي الأخير في عام 2006، وأثناء هذا العدوان وما بعده، فالمقاتلون مجهولون، لا يعرفهم أو يراهم أحد، ولا يتجولون بين الناس بلباسهم وأسلحتهم، ولا يختالون تيها في الأرض، والآخرون من ذوي المهمات المتعددة، يعرفون واجباتهم ويقومون بها، كل في موقعه، ويقوم بالمهمة المحددة له خير قيام.

ولقد قيل كثيرا عن حوادث، اضطر فيها مقاتلو المقاومة الى دخول بعض البيوت الخالية، التي هُجِر أهلها، وكانوا اذا ما استعملوا أغراضا في البيت، يحرصون على كتابة رسالة لأهلها، تاركين رقم هاتف للاتصال عليه. كما قامت المقاومة وبعد انتهاء العدوان بصرف مبالغ مالية مستعجلة لمن هدمت بيوتهم، ليستأجروا بيوتا ويقومون بفرشها انتظارا لاعادة بناء بيوتهم الأصلية. كذلك يقومون باصلاح وترميم البيوت المتضررة حتى الزجاج المتكسر فيها.

هذه العلاقة مع الناس لم تأت صدفة، بل هي استمرار لعلاقة بتفاصيلها المتعددة كانت قائمة منذ انشاء المقاومة: مساعدة الناس، العمل على مساعدتهم وحل اشكالاتهم الاجتماعية، الصحية، التعليمية، الزراعية وغيرها.

بالنسبة للقيادة، فالى جانب التماسك القيادي للمقاومة ووضوح خطها السياسي استراتيجيا وتكتيكيا، وحرصها الدائم والمستمر على وضع الجماهير بآخر الأحداث السياسية المستجدة، وتحديدها للحلقة الأهم في كل مرحلة من المراحل، والاعتراف بالأخطاء علنا وأمام الناس اذا ما مورست هنا أو هناك، وعلى سبيل المثال: اعتراف الأمين العام لحزب الله: حسن نصر الله، بأنه لم يتوقع ردود الفعل الاسرائيلية على اختطاف الحزب للجنديين بمثل الذي جاءت عليه، ولو أن الحزب كان يعرف ذلك، لما قام بعلمية الاختطاف! فان هذه القيادة تعيش مثل باقي الأعضاء حتى أصغرهم، ان في مستويات حياتها، أو في مساواة عائلاتها بعائلات الآخرين، وانخراط العديد من أبنائها في المقاومة والتضحية وصولا الى الاستشهاد، كابن الأمين العام للحزب، الشهيد هادي حسن نصر الله. بمعنى آخر... فان عضوية القيادة في المقاومة اللبنانية ليست وسيلة لكسب أية امتيازات شخصية أو عائلية، أي أنها تكليف لا تشريف.

غني عن القول أيضا، أن قيادة المقاومة، ابتداء بالأمين العام وصولا الى أصغر عضو فيها تحرص تمام الحرص على الالتزام بالقرارات الجماعية التي تتخذها الهيئات المركزية وفقا للتسلسل التنظيمي، فلا خروقات، ولا اجتهادات الا في القضايا التي يصح فيها الاجتهاد، أما القضايا التي تحتاج الى نقاش وتشاور وقرار، فلا يمكن لمسؤول أن يفتي فيها منفردا.

وبالنسبة للوقفات النقدية المستمرة، فوفقا لتصريحات الأمين العام لحزب الله مؤخرا (لقناة الجزيرة) فانها تتم دوما، وأعلن كذلك، أن الحزب على أبواب وقفة مراجعة نقدية شاملة لما حصل (يقصد بذلك مرحلة العدوان).

وما دامت مثل هذه الوقفات تتم بشكل دوري، فبالتأكيد، فان عقوبات ما تتخذ بحق المقصرين وفقا لسلم العقوبات في الحزب. جدير بالذكر أيضا أن المقاومة أجلت اعلان أسماء الكثيرين من شهدائها وممن قاموا بعمليات عسكرية نوعية الى ما بعد التحرير.

المقاومة اللبنانية شكلت جسما صلبا عصيا على الاختراق (وباعتراف العدو).

فلسطينيا، بداية نود التوضيح، بأنه وفقا للتنوع التنظيمي في الساحة الفلسطينية، ووفقا للانتماء النظري العقائدي لها، فانه وبرغم الاجماع من كافة التنظيمات على نسج أفضل العلاقات مع الجماهير الفلسطينية.... الا أن بعض هذه التنظيمات وخاصة المتنفذه منها تعاني انفصاما ما بين الايمان النظري بأهمية العلاقة مع الناس وبين حقيقة المسلكية على هذا الصعيد، فالبعض من أفراد هذه التنظيمات يرى نفسه فوق الناس والجماهير ،حتى أن انغلاقه التنظيمي، ودفاعه عن تنظيمه مصيبا كان أم خاطئا بالنسبة لهذه القضية أو تلك يُعمي عينيه عن رؤية الحقيقة، حيث أن انشداده لتنظيمه يقع فوق انتمائه للقضية، التي هي أكبر من كل التنظيمات!

في الساحة الفلسطينية توجد تنظيمات أحرص ما تكون على العلاقة مع جماهيرها، وفيها أيضا من لا تضع أي حسابات للعمل الجماهيري. بشكل عام، فانه ومنذ انطلاقة الكفاح الفلسطيني المسلح وقعت المقاومة في أخطاء العلنية لمقاتليها، الذين كانوا يسيرون في الشوارع وبأسلحتهم، كما كان يتم التدخل في حياة الناس العاديين الخاصة!

ثم كان التباري الاعلامي في تبني احدى العمليات العسكرية المقاومة، ووصل الى الحد، أن بضع تنظيمات كانت تتبنى العملية الواحدة!

في لبنان، فان بعض القوى الفلسطينية رأت في تنظيماتها بديلا للحركة الوطنية اللبنانية، وأنشأت على هامشها تنظيمات صغيرة ملحقة بالتنظيم الفلسطيني.

اساءات كثيرة كانت توجه الى الناس، ترافقت مع مسلكيات مثل: الفساد والافساد والثراء غير المشروع والزعرنة والاستبداد، وللأسف لم تجر محاسبة مقترفي ذلك.

ولو أن المقاومة الفلسطينية انتبهت الى أخطائها على الساحة اللبنانية وبترتها واحدا بعد الآخر، وحاسبت مقترفيها بقسوة، ولو أنها حرصت على علاقة سليمة مع أطراف الحركة الوطنية اللبنانية على مبدأ المشاركة الوطنية في القرارات... لما استطاعت اسرائيل احتلال الجنوب في بضعة أيام، أو كان يلزمها للقيام باحتلالها بضعة أشهر، وهذا في أسوأ الحالات.

لقد شكلت السلطة الفلسطينية ما يزيد على اثني عشر جهازا أمنيا، وزاد عدد الموظفين عن مئة ألف، أما الرتب العالية من الضباط (عقداء وزعماء) فربما تزيد عن مثيلتها بين الجيوش الانكليزية أو الفرنسية أو الايطالية.

هذا العدد الكبير في الأجهزة، كان من المفترض أن يشكل عائقا كبيرا أمام اعادة احتلال الجيش الاسرائيلي للمناطق الفلسطينية... (فمثلا في مخيم جنين استطاع بعض المقاومين من كافة التنظيمات، الذين لم يمتلكوا سوى أسلحة بسيطة منع الجيش الاسرائيلي من احتلال المخيم مدة أسبوعين في معارك ضارية أشرف عليها شارون شخصيا ووزير دفاعه وقائد أركانه، وبالرغم من ضرب مواقعهم بالطائرات الاسرائيلية... وبعد نفاذ أسلحتهم واستشهادهم جميعا، استطاع الاسرائيليون دخول المخيم بعد أن حولوه ركاما)! ولكن للأسف شاهدنا على الفضائيات كثيرين من أعضاء هذه الأجهزة يسلمون قذائف (الأر. بي. جي) للاسرائيليين (مع أنها تستعمل ضد الدبابات) ويسلمون أنفسهم للاسرائيليين!

حصل الشيء نفسه، عندما هاجمت اسرائيل سجن أريحا لاختطاف أحمد سعدات وفؤاد الشوبكي ورفاقهما.

اعتقد موقعو اتفاقيات اوسلو أنهم في الطريق الى اقامة الدولة الفلسطينية المستقلة، وبدأت بعض فصائل اليسار الفلسطيني في التنظير لبدء مرحلة جديدة في النضال الوطني الفلسطيني، وهي مرحلة التحرر الوطني الديموقراطي، باعتبار أننا انتهينا (بل الأدق تعبيرا انجزنا) مرحلة التحرر الوطني! هذا الخطأ الفادح في تقييم المرحلة (والانجازات) من النادر أن تقع في مطباته فصائل أساسية في مطلق حركة تحرر وطني، ولا بد له أن ينعكس سلبا على مجمل النضال الفلسطيني. وبالفعل لم تمض سنوات طويلة على انشاء السلطة حتى قامت اسرائيل بهدم بنيتها التحتية مرات ومرات، وجعلت منها ووفقا للتصورات الاسرائيلية: مسؤولة عن ادارة الشؤون الحياتية للفلسطينيين، ومن ثم أعلن شارون (وفاة) اتفاقيات أوسلو نهائيا.

على الصعيد العملي المقاوم.... فان التنظيمات الفلسطينية كانت تسجل لأعضائها الاستشهاديين ممن يقوموا بعمليات فدائية نوعية، أشرطة تسجيل مصورة... لا تلبث أن تبثها بعد التنفيذ!

ردة فعل قوات الاحتلال الاسرائيلي كانت تتمثل في القيام فورا بهدم منزل الفدائي واعتقال أهله! للأسف لم تراع تنظيمات المقاومة الجانب الأمني للأهل في هذا السياق!

وكمثال أيضا على خطأ تشخيص المرحلة: فان بعض تنظيمات المقاومة، وبعد اعادة انتشار قوات الاحتلال في قطاع غزة وتفكيكها للمستوطنات فيما عرف عليه بـ(خطة الانطواء) (وعلى الرغم من ايجابية الانجاز النسبي في هذا الأمر)، قامت بنشر صور وأسماء قيادة جهازها العسكري، معتقدة أن القطاع قد تم تحريره، متناسية أن قوات الجيش الاسرائيلي ما زالت على المعابر وعلى الحدود، والاسرائيليون أعلنوا مرارا أنهم سيدخلون الى القطاع متى أرادوا ذلك، وبالفعل تحول قطاع غزة الى سجن كبير، ومارست اسرائيل وما تزال حصارا خانقا لشعبنا في القطاع.

من أكبر الأخطاء التي عانت منها فصائل المقاومة في المناطق الفلسطينية: قضية العملاء، الذين لعبوا وما زالوا يلعبون دورا مهما في التسهيل لاسرائيل للقيام باغتيالاتها للقادة والناشطين الفلسطينيين، من خلال الاستدلال وبسرعة على مواقعهم وأماكن تحركاتهم. للأسف فانه وفقا لأحد بنود اتفاقيات اوسلو... اشترطت اسرائيل، ووافق على ذلك موقعوا الاتفاقيات من الفلسطينيين بعدم جواز تعرض السلطة للعملاء! صحيح أن عملاء كثيرين جرت تصفيتهم، ولكن ذلك كان يتم خارج اطار السلطة، وصحيح أن البعض من العملاء كانوا يسجنون من قبل السلطة... لكن وفي معظم الحالات كانت اسرائيل تقوم بغاراتها على السجون واختطاف عملائها. ولعلني أعيد الى الأذهان الخطوة الأولى التي قام بها الجنرال ديغول بعد دخوله مع أعوانه الى باريس بعد أن تحررت من القوات النازية، كانت خطوتهم الأولى تصفية العملاء الذين خدموا النازيين، في خطة أطلقوا عليها: (تنظيف فرنسا من العملاء)، هذا يلقي الضوء على أهمية تعامل حركات التحرر الوطني بمنتهى الجدية مع هذه القضية الكبيرة.

للتماسك القيادي في الساحة الفلسطينية وجهان:

في اطار التنظيم نفسه وفي العلاقة بين التنظيمات المختلفة. بالنسبة للأول فانه وفي هذا التماسك، نسبي وفقا للتنظيم المعني، فبينما في أحد التنظيمات جرى تقديم لائحتين لانتخابات المجلس التشريعي الأخيرة (تم الاتفاق فيما بعد على سحب احداها، لكن غالبية أعضاء القائمة المسحوبة ترشحوا للانتخابات بصورة فردية، الأمر الذي انطبق على كثيرين أيضا من الذين ترشحوا فرديا وليس في قوائم تنظيماتهم، مما حدى ببعض التنظيمات الى اتخاذ قرارات بفصلهم من عضويتها)، وهذا خلل تنظيمي ودليل على عدم التجانس القيادي أيضا. في بعض التنظيمات الأخرى فان التماسك والتجانس القياديين ظلا محددا رئيسيا فيها، وهذا لا يعني عدم الاختلاف في وجهات النظر في الاطار القيادي للتنظيم الواحد، الذي يجري التعبير عن مواقفه علنيا بوجهات نظر واحدة. عدم التجانس القيادي والاختلاف حول وُجهات النظر أدى الى انشقاقات حادة في أجساد التنظيمات الفلسطينية وفي مراحل زمنية مختلفة.

بالنسبة لمسألة التماسك القيادي بين التنظيمات، فقد تميز بين المد والجزر، وفقا لمدى التوافق السياسي حول القضايا المطروحة، ووفقا للاتفاق التنظيمي أيضا.

الوسيلة الأبرز للتفاعل والتماسك بين القيادات للفصائل المختلفة، كانت تجري في أطر متعددة: منظمة التحرير وهيئاتها القيادية، العلاقات بين التنظيمات منفردة، الصيغ المرحلية التي كان يتم الاتفاق عليها لخدمة قضية محددة مثل: القيادة الموحدة للانتفاضة (التي جمعت فصائل منظمة التحرير، وبقيت الفصائل الاسلامية خارج اطارها).

الفصائل الاسلامية، كانت وما زالت خارج اطار منظمة التحرير الفلسطينية، الانجاز الاستراتيجي التاريخي للشعب الفلسطيني، فاضافة الى أسئلة كبيرة تُطرح حول مدى شرعية تمثيلها للشعب (من وجهة نظر هذه القوى)، فان أسس اعادة صياغتها على قواعد الاصلاح واعادة بناء مؤسساتها وبناء على الظروف المستجدة بالنسبة لتنظيمات جديدة ظهرت في العشرين سنة الأخيرة، وهي الأسس التي تشكل قاسما مشتركا بين مختلف التنظيمات، الا أنه وللأسف فان خطوة عملية واحدة نحو تحقيق هذا الهدف لم يجر اتخاذها بعد!

الخلل كذلك تمثل في عدم انعقاد الهيئات المركزية لمنظمة التحرير الفلسطينية، كالمجلس الوطني والمجلس المركزي واللجنة التنفيذية لاجتماعاتها الدورية، وبرغم وفاة أعضاء كثيرين في اللجنة التنفيذية وانشقاق بعض أعضائها عن التنظيمات التي كانوا يمثلونها فيها، فان هذه اللجنة ما زالت شرعية (رغم افتقادها للنصاب) وما زالت تعقد اجتماعات قليلة بل نادرة! أما من حيث تركيبة المجلس الوطني الفلسطيني فهي متضخمة الى الحد الذي تبلغ فيه سبعمئية عضو، مما يؤثر سلبا على عملية انعقاده وعمق مناقشاته للمواضيع التي يطرحها على جدول أعماله، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فان غالبية التنظيمات الفلسطينية تعترض على محدودية وقلة نسبة تمثيلها في المجلس الوطني وفي مؤسسات المنظمة الأخرى، كما أن الكثيرين من أعضاء المجلس الوطني من بين المستقلين (خارج اطار التنظيمات) جرت تسميتهم اعتمادا على الصداقات والولاءات، وليس اعتمادا على كفاءاتهم، وحقيقة تمثيلهم.

ان واحدا من أكبر الأخطاء في الساحة الفلسطينية، أنه وبعد تشكيل السلطة الوطنية، ارتُؤيَ أنها تشكل بديلا لمنظمة التحرير الفلسطينية، التي جرى تهميشها تماما ومؤسساتها، بالرغم من أن المنظمة هي الاطار الجامع بين جزئي الشعب الفلسطيني في الوطن وفي الشتات، سياسيا وفي مختلف المناحي الأخرى.

مؤخرا وبعد أن زالت الأوهام بامكانية انتزاع دولة فلسطينية مستقلة ذات سيادة من اتفاقيات اوسلو، ابتدأ الحديث يدور عن اعادة احياء دور منظمة التحرير الفلسطينية.

في بداية انطلاقة العمل الفدائي الفلسطيني، كان ينظر للمقاتل باعتباره (نبيا) ولكن للأسف ومع مضي السنوات، فان خللا كبيرا أصاب هذه الصورة، (باستثناء الموقع الذي يحتله الشهداء في نفوس الشعب الفلسطيني). اليوم فان (النموذج) يقل يوما بعد يوم بعد مرور النضال في مراحل مختلفة.

بقي القول، أن عضوية القيادة في الكثير من التنظيمات هي وسيلة لتحقيق الامتيازات، ولعلني أقول مثالا واقعيا، ففي مرحلة الاتحاد السوفييتي ودول المنظومة الاشتراكية، كانت آلاف المنح الدراسية تعطى لتنظيمات المقاومة لارسال الشباب الفلسطيني الى تلك الدول، غير أن أبناء معظم القادة المتنفذين كانوا يرسلون للدراسة الى الولايات المتحدة والدول الأوروبية، اضافة بالطبع الى مسلكيات أخرى سلبية كثيرة: البيوت الفخمة، السيارات المتعددة، الأموال الكثيرة، امكانية شراء الولاءات بالمعنى الشخصي، وغير ذلك من المسلكيات التي تركت تداعيات سلبية بين الجماهير الفلسطينية التي كانت ترى في البداية القادة في صورة نموذجية.... لكنها خَبَت بعد بضع سنوات!

أوجه مقارنة

في بعض الجوانب الأخرى العامة:

حول نظرية المؤامرة. من الطبيعي أنه وطالما تواجدت مطلق حركة مقاومة أن تتعرض للمؤامرات التي تحاول اجهاضها وتحطيم أهدافها على طريق القضاء عليها.

ولعل المقاومة الفلسطينية من أكثر حركات التحرر الوطني على الصعيد العالمي، التي تعرضت لمؤامرة كثيرة ومتشعبة وقاسية وفي كل الساحات التي تواجد